السـلوك

يستخدم مصطلح السلوك Behavior فى علم النفس، ويرمز إلى الفعل / رد الفعل للكائن الحى حيال العالم المحيط. إن المنظومة الكونية بصفة عامة هى مجموعة من الأحداث، والمنظومة البشرية تعتبر منظومة جزئية Subsystem من المنظومة الكونية الشاملة، ويمكن اعتبارها أيضا مجموعة أحداث، يقوم بها الإنسان بأفعال شعورية ولا شعورية يمكن التحكم فيها، أو أفعال بيولوجية آلية مثل التنفس، وحركة القلب التى تؤدى إلى سريان الدم فى الجسم. أما بالنسبة للأفعال / ردود الأفعال التى يمكن للعقل التحكم فيها فهى التى تسير حياتنا وعلاقتنا مع الآخرين من كائنات حية، ومع البيئة / الطبيعة / المادة التى تكمل المنظومة الكونية.

يبدأ السلوك بتأثير دافع Motive يوجهه فى مسار حتى يصل إلى الهدف أو الغاية من ورائه، هذا إذا كانت الظروف المتاحة من الآخرين أو من الطبيعة تسمح بالوصول إلى الهدف. وينشأ الدافع عن قوة تصدر عن طاقة انفعالية فطرية، أساسها المادى نظام عصبى / عضلى / غددى، يشحنها عقل يحلل ويقرر ويوجه. يتكامل البدء والوسيلة والغاية فى منظومة ديناميكية / متصلة / متعاقبة، تؤدى إلى حركة دائمة وعمل ذهنى لا يكف، للتعامل مع البيئة. والتمادى Perseverance ظاهرة سلوكية مؤداها استمرار سلوك معين من الفرد، رغم انقضاء المبررات الموضوعية لصدور هذا السلوك أصلا. فالإنسان يتأثر سلوكه بتجارب سابقة مرت عليه، شكلت شخصيته، فسيرت سلوكه فى الحياة فى اتجاه قد يكون بعيدا عن الموضوعية.

عرف الفيلسوف الإنجليزى هربرت سبنسر Spencer " الحياة " بأنها: الملائمة المتواصلة للعلاقات الداخلية مع العلاقات الخارجية، وأن وظيفة الجوانب النفسية للكائن الحى هى محاولة تكييف الكائن الحى مع البيئة المحيطة ومحدداتها الطبيعية، ومع المجتمع المتمثل فى الآخر / الآخرين. أدى هذا التعريف العام إلى

ظهور "علم النفس التوظيفى"، وفيه يستخدم الإنسان – فى مسيرته الحياتية – عقله، وعواطفه، وأحاسيسه، وعاداته، وإصراره فى العمل، وذاكرته،.. كوسائل للتوافق مع مطالب ومقتضيات الحياة.

يتضمن السلوك – بصفة عامة – كل نشاط يقوم به الكائن الحى، وينقسم السلوك إلى قسمين: الأول هو سلوك آلى أو لاإرادى، مثل انقباضات الحواس والأطراف والغدد. أما القسم الثانى فهو نتاج التفاعل بين الفرد والبيئة، التى تشمل كل ما يحيط بالإنسان من بيئة مادية وأخرى من مختلف الكائنات الحية. ويتكون النوع الثانى من السلوك من سلسلة متصلة من الحوادث. إن لكل حادثة بداية ونهاية، وتتداخل الحوادث الاستطرادية فى التى تليها. يوجد الهدف بين الحوادث جميعا، ويجعلها غير متعارضة فى الاتجاه.

من خلال القسم الثانى يقوم علم النفس Psychology بتحليل ودراسة السلوك الإنسانى من منطلق تقسيم آخر وهو:

- **السلوك العلنى والصريح** Overt Behavior

وهو السلوك الذى يمكن ملاحظته وتسجيله من الكلام ومن الفعل، مثل الأكل والشرب والحركة والأعمال المختلفة والعدوان وصده. ويمكن من خلال الاستنتاج والاستدلال لهذه الأنشطة إجراء التحليل النفسى للفرد.

- **السلوك الخفى** Covert Behavior

وهو السلوك الذى لا يمكن ملاحظته بطريقة مباشرة، فهو شعور نابع من عمليات عقلية بحتة Mental Processes، مثل الفكر والمنطق وحل المشاكل، وكذلك العواطف Emotions، والمشاعر Feelings، والأحاسيس المختلفة (من خوف، وحزن، وسرور، وغضب، وانجذاب، ونفور... الخ).

فى بداية سبعينات القرن العشرين ظهر مفهوم جديد للسلوك الإنسانى صاغه دكتور علم النفس الأمريكى جوليان روتر، يرتكز على تقسيم البشر إلى نوعين:

الأول: هو الشخص الذاتى Internal Person، وهو الذى يوجه سلوكه، بحيث لا يكون لعناصر البيئة أى تأثير ملموس عليه. يعمل هذا الشخص من أجل تطوير البيئة التى تحيط به، ويعتمد على جهده وقوة إرادته، مدفوعا بحافز النجاح وتحقيق أهدافه. لا يلجأ هذا الشخص إلى الحيل الدفاعية أو الهروب من المشاكل والصعوبات، وهو مثابر ويهوى المشاق وتحدى الصراع فى إنجاز عمله، ولديه القوة لأخذ القرار وتحويله إلى عمل.

الثانى: هو الشخص الظاهرى External Person، وهو الذى يكون تحت رحمة البيئة حيث إنها الموجه الأول لسلوكه، وتكون العوامل الخارجية هى الدافع لتصرفاته. يستجيب هذا الشخص لتأثيرات البيئة ولا يحاول تغييرها، دافعه للعمل هو الخوف من الفشل، يفضل الأنشطة التى تتوفر فيها فرص الحظ واحتمال النجاح وهو كسول وليس لديه طموح للرقى والصعود.

قامت دراسات وأبحاث عديدة فى مجال علم النفس والعلوم المرتبطة به مثل الفلسفة وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا لتفسير السلوك الإنسانى. ذهب علم النفس – على مدى تاريخه – نحو مذاهب شتى فى تفسير السلوك، أهمها:

١- نظرية الغرائز:

والغريزة بتعريفها النظرى هى استعداد فطرى لا يحتاج إلى تعلم، يدفع الكائن الحى إلى القيام بسلوك خاص فى موقف معين، وهى الدافع وراء نشاطه، ومن بين هذه الغرائز: السيطرة، التملك، الخنوع والطاعة، حب الاستطلاع، القتال، الأمومة / الأبوة، الحل والتركيب، النفور، حب الاجتماع، الجنس، التنافس، الخوف،... إلى آخره.

إن الغرائز قابلة للتغيير عن طريق الخبرات المكتسبة، فالجانب الإدراكى والجانب الحركى قد يتغيران باكتساب خبرات معينة، فالتجارب التى يمر بها

الإنسان قد تكبح أو تزيد من شدة الغريزة، فالعقاب مثلا يخفض من شدة غريزة الصراع / القتال، وتزداد الرغبة فى حب الاستطلاع عند السفر والترحال. لا يتم تعديل الغرائز فى جانبها الإدراكى وجانبها الحركى فقط، بل إن هناك مجالا فى تعديل الغرائز بتحويلها إلى ميول مركبة، وعواطف. فيمكن أن تستثار أكثر من غريزة فى موقف معين فالوطنية مثلا ليست غريزة ولا انفعالا أوليا، وإنما هى عاطفة تكونت نتيجة امتزاج مجموعة من الغرائز فى رحلة تجارب الفرد، فالوطن فى حالة الخطر يثير الخوف عليه، وحين تعتدى عليه دولة أخرى يثار الغضب والميل نحو القتال. مثال آخر وهو عاطفة الحب، فهى ليست غريزة ولا ميلا أوليا ولكنها عاطفة مركبة، تستثار عن طريق الغريزة الجنسية، وغريزة التملك، وغريزة حب الاجتماع وغيرها من الغرائز الأخرى، والتجارب الإنسانية. وفى وجود شخص من الجنس الآخر، وبتكرار استثارة هذه المجموعة من الغرائز فى وجود الشخص نفسه تتكون وتتطور عاطفة الحب. لا يتطلب وجود الطرف الآخر حتى تستثار العاطفة، فالذكرى أو الوجود فى الأماكن التى شهدت لقاءات سارة، أو سماع صوت الطرف الآخر، كلها عوامل تثير عاطفة الحب. يعتبر بعض علماء النفس أن العواطف هى القوى التى تدفع مباشرة إلى السلوك.

٢- مدرسة التحليل النفسى:

ركز عالم النفس سيجموند فرويد فى هذا المذهب على أهمية اللاشعور فى سلوك الإنسان. والجهاز النفسى للإنسان فى رأى فرويد يتكون من ثلاث منظومات وهى: الهو، والأنا، والأنا العليا. ويحتوى الهو Id على كل المورثات الفطرية، فهو مخزن للغرائز الجامحة والرغبات الشريرة التى تريد الانطلاق فى عالم الفطرة والحرية، ودون كبت أو ممنوعات. ولا تخضع حاجات الهو لمبدأ الواقع، لذلك لا يعترف بالزمان ولا بالعلاقات المنطقية. أما الأنا Ego فتخضع لمبدأ الواقع الذى ينظم إشباع الرغبات الغريزية للكائن الحى بما يتفق مع مقتضيات الواقع فيسمح

بإشباعها حينا، ويؤجل إشباعها حينا آخر. والأنا العليا Super Ego تأخذ من المجتمع والسلطات الخارجية أوامره ونواهيه، وتحولها إلى سلطة داخلية تقوم بمراقبة سلوكه، فتسمح بإشباع الرغبات التى يقرها المجتمع، وتكبت الرغبات التى لا تتناسب مع القيم السائدة فى المجتمع. إن الشخصية الإنسانية من وجهة نظر فرويد عبارة عن قوى تتصارع فيما بينها، فالهو يريد التحرر والانطلاق لإشباع الغرائز البشرية، والأنا يمنعه أحيانا من تحقيق ذلك الانطلاق، والأنا العليا يعمد إلى كبت رغبات الهو. أطلق فرويد مصطلحًا آخر يسمى " الليبيدو " Libido وهى طاقة انفعالية / نفسية مستمدة من الدوافع البيولوجية الأولية مثل الشهوة الجنسية، والذى يعتبر المحرك الأصلى للسلوك فى نظريته عن التحليل النفسى. استخلص فرويد نظريته من تحليله النفسى لأفراد الطبقة المتوسطة فى مدينة فينا – عاصمة النمسا – والتى كانت تتعرض لعوامل الكبت الجنسى وأنواع المحرمات الاجتماعية بالنسبة للعلاقة بين الجنسين، ولو كان فرويد – كما أعلن ناقدوه – قد أدخل بعض أفراد الطبقة الدنيا فى الشريحة التى قام بتحليلها، لأدخل بعض العناصر الأخرى لدافع السلوك، مثل الحاجة للطعام أو المأوى.

توصل سيجموند فرويد إلى مبدأين أساسيين يُسيران سلوك الإنسان، واعتبرهما القوة المحركة له، وهما:

- مبدأ اللذة – الألم Pleasure-Pain Principle
- مبدأ محاولة فهم الإنسان لبيئته ونفسه.

يعنى المبدأ الأول أن الإنسان يبحث فى العادة عن الإثارة التى يترتب عنها لذته وارتياحه، ويميل إلى تجنب ما يؤلمه. أما محاولة فهم الإنسان لبيئته وذاته فيعرف بالتركيب السببى Casual Structure، وهذا الدافع يحرك البشر للكشف عن مغزى ما يدور من أحداث، وفهم سلوك النفس وسلوك الآخرين. إن المظاهر

والآثار الموجودة حولنا، يدركها الإنسان كنتائج، ويحاول أن يتوصل إلى أصلها والأسباب التى أوصلتها للحالة التى هى عليها، فانحراف شخص ما عن الطريق السليم والسوى يسبقه كثير من الأحداث والأسباب، مثل هطول الأمطار الذى يسبقه وجوب وجود مياه وحرارة تبخر هذا الماء، ثم يتكون السحاب ويتكثف ويسقط فى صورة أمطار.

يطلق بعض علماء النفس على الأنا العليا اسم الضمير. عرف يوسف ميخائيـــل الضمير: (إن الضمير بصفة عامة، عبارة عن جهاز نفسى تقييمى تقويمى، بمعنى أنه يقوم بالتمييز بين الخير والشر من جهة، وبين المفيد والضار من جهة ثانية، وبين المناسب من الفكر والعاطفة والإرادة وغير المناسب من جهة ثالثة. ثم إنه يقوم بتنبيه المرء إلى ما يكتنف سلوكه من شر ومن ضرر، ومن بعد عما يناسبه، وما يناسب المواقف التى يوجد بها، وما ينسجم مع الظروف التى تكتنف حياته. ولقد يستجيب المرء أو لا يستجيب لما يقوم به ضميره من تمييزات ومن توجيهات، فيعد الطاقة النفسية التى يتسنى له عن طريقها أن يقوم بتصحيح سلوكه، وتوجيهه الوجهة السوية). يعتبر الندم Repentance أو الخوف من العقوبة وفقدان الحب من العوامل التى تؤدى إلى نشأة الضمير. وقد يصاحب الندم ما يسمى "بوخز الضمير"، والذى يعبر عن مشاعر الذنب فى المستوى اللاشعورى. وفى درجة أقل من الندم يجىء الأسف Regret، وهو استجابة انفعالية لتجربة تمت ولم ترض عنها الأنا العليا، فاكتفت بالأسف على اقتراف الخطأ.

٣- نظرية علم النفس الاجتماعى:

لم تنكر هذه النظرية بعض الحاجات الفطرية التى ترتبط بحياة الإنسان البيولوجية، مثل الحاجة إلى الطعام والنوم وإشباع الرغبة الجنسية، إلا أن تفاعل الإنسان مع المجتمع، والخبرات المكتسبة من خلال هذا التفاعل تسير إلى حد

ملموس سلوك الإنسان. أخرج جوردن البورت فى النصف الأول من القرن العشرين نظرية "الاستقلال الوظيفى" Functional Autonomy، والتى تتلخص فى أن الكثير من الدوافع المكتسبة لدى الإنسان البالغ / العاقل تشتق من حاجته الفطرية، وتصبح مستقلة من الناحية الوظيفية عن مصدرها، وتؤثر بدورها تأثيرا ديناميكيا فى سلوك الفرد. إن هذه التكوينات الجديدة تعتمد فى تكوينها على تفاعل الخبرات المكتسبة، مع شخصيته من ميول واتجاهات، ومع الغرائز الفطرية الموروثة. إن تفاعل هذا المزيج يفرز دائما وباستمرار – بلغة الكيمياء – مركبات تختلف بمرور الزمن نتيجة لاكتساب خبرات جديدة، واحتمال التغيير فى الشخصية.

٤- نظرية ارتباط السلوك بالمجال النفسى:

فى منظومة المجال النفسى، يرتبط الدافع بعدة عناصر، منها:

- هدف معين يذهب الدافع إلى تحقيقه.
- الوصول إلى الهدف، والسعى فى أداء النشاط الذى يؤدى إلى تحقيقه.
- ظهور حالات انفعالية خاصة، من شعور بالارتياح عند تحقيق الهدف، والشعور بالاستياء عند الفشل.

ونتيجة للتفاعل الديناميكى لهذه العناصر التى تعمل داخل منظومة اجتماعية قد تساعد أو تعوق تحقيق الهدف، غالبا ما يحدث نوع من التغيير المستمر، وعدم الاستقرار، مما يؤدى إلى القلق ثم التوتر، ويقل التوتر أو يزول عند تحقيق الهدف. إن حالات التوتر قد تنجم عن أسباب شعورية يدركها الفرد، أو تكون فى بعض الأحيان ناجمة عن أسباب خافية عنه، وهو ما يعرف باسم "الدوافع اللاشعورية". يذهب فرويد إلى أن جزءا كبيرا من أعمال الإنسان يصدر عن اللاشعور، أى إن الفرد يشعر بالتوتر دون علم بأسباب ذلك التوتر، أو يقوم بأعمال معينة دون معرفة الدوافع وراء هذه الأعمال. تختلف هذه الحالة عن

الدوافع الخفية التى يدركها الإنسان ولا يريد إعلانها لأسباب عديدة، فهى قد تكون غير أخلاقية، أو إعلانها يؤدى إلى خسارة معنوية أو مادية للفرد. مثلا، ليس كل من يرتاد دور العبادة يكون مدفوعا بدافع دينى، وليس كل من يدافع عن وطنه هو إنسان غيور على وطنه، وليس كل من ينادى بالمساواة، اشتراكى، وليس كل من يناضل من أجل تطبيق القيم الأخلاقية يطبقها فى حياته الخاصة. إن وراء سلوك معظم البشر دوافع غير ظاهرة، خوفا أو خجلا من إعلانها، وتتكيف المنظومة البشرية فى خداع متبادل بين أفرادها، هربا من كشف حقائق لم يعتد الإنسان أن يعيش بها، فأصبح الدافع الخفى جزءا من ثقافة عامة لجميع البشر.

إذا كانت الدوافع الأولية Primary Motives هى التى لم يكتسبها الفرد من بيئته عن طريق الخبرة والمران والتعليم، وإنما هى عبارة عن استعدادات يولد الفرد مزودا بها، لذلك فهى تسمى بالدوافع الجينية / الفطرية Genetic Motives، أو دوافع عضوية Organic Motives، فإن القسم الثانى من الدوافع وهى الدوافع الثانوية Secondary Motives، والتى تنقسم أيضا إلى دوافع نفسية اجتماعية مثل الميل إلى الاجتماع، والميل إلى السيطرة وتأكيد الذات..، وإلى دوافع شخصية / ذاتية والتى تشمل الميل إلى التملك، والاستقلال، والسعى وراء هدف النجاح والرقى، والحاجة إلى الحب والحنان.

بالإضافة إلى ما سبق من الدوافع، يوجد عدد لا نهائى من الرغبات، والاحتياجات، والميول، والتى تُكون فيها البيئة والتأثيرات الخارجية دورا كبيرا فى تشكيلها، وفى تقويتها أو إضعافها. إن الإنسان فى جميع مراحل حياته – من الطفولة وحتى الممات – يعيش فى مجتمع ما، بدءا من أسرته، ومرورا بدور التعليم المختلفة، ثم الاتصال بمجموعات أخرى فى مجال عمله أو الأماكن الترفيهية التى يرتادها، أو من خلال هواياته واتجاهه السياسى والرياضى

والثقافى. وينمو فى داخل إطار الميل إلى الاجتماع، مجموعة من الميول الاجتماعية التى من شأنها تحقيق الصلة بين أفراد المجتمع، ومن أهمها: الاستهواء، والمشاركة الوجدانية والتقليد. والاستهواء عبارة عن خاصية من خصائص الشخصية البشرية تجعل الفرد يتقبل أفكارا معينة دون أن يحاول نقدها أو التأكد من صحتها أو ملائمتها لظروفه. يرجع سبب القبول الأعمى / شبه الأعمى إلى أسباب عديدة أهمها:

- وجود الفرد فى حالة عقلية أو نفسية غير ملائمة / غير طبيعية، مثل حالات القلق والارتباك الذهنى أو الإحباط أو عدم الرضا أو المعاناة من الحاجة (الجوع / العطش / الفقر /...) أو وجوده تحت تأثير المخدرات، ففى جميع هذه الحالات يكون الفرد أكثر قابلية للاستهواء.
- وجود أفكار أو عقائد ثابتة وجامدة، خاصة العقائد الدينية، أو التى تمس حاجات الإنسان المادية. يدعم هذا الاتجاه الإعلام المستمر والمركز والذى يؤدى إلى ما يسمى بعملية "غسيل المخ" والتى ينتج عنها أحداث شلل للتفكير والتحليل العقلانى غير المتحيز.

٥- المدرسة السلوكية:

نبعت المدرسة السلوكية Behaviorism فى علم النفس من منشورات عالم النفس الأمريكى جون واطسون Watson فى النصف الأول من القرن العشرين. كان واطسون ضد مدرسة التحليل النفسى الذى أسسها فرويد والفكر القديم فى علم النفس، الذى يركز على الاستبطان Introspection، بمعنى فحص وتحليل الأفكار، ودوافع ومشاعر الإنسان كبيان وتوقع للسلوك. فى المقابل اقترح واطسون علم النفس / الموضوعى / غير الذاتى Objective Psychology، والوظيفى Functional، والتجريبى Experimetal، والذى يدرس العلاقة بين الحوادث الطبيعية كمنبه / مثير

Stimulus، والسلوك كاستجابة Respond. وفى نفس القرن، جاء سكينر Skinner ليكمل أعمال واطسون فى علم النفس السلوكى.

تذهب المدرسة السلوكية إلى أن الإنسان يتشكل من مجموع تجاربه عبر رحلته الحياتية. تنتج هذه التجارب من تفاعل الإنسان مع البيئة التى تتكون من الطبيعة المادية والآخرين من البشر. إن الظروف البيئية هى التى قد تسير الطفل ليصبح طبيبا مشهورا، أو لصا مصيره السجون. فسلوك الإنسان يمكن أن يتحدد بالظروف التى يمكن تناولها ومعالجتها موضوعيا. اتفقت المدرستان: التحليل النفسى والسلوكية فى صفة الحتمية للسلوك البشرى، فالإنسان يولد ومعه صفات وراثية فى جيناته، لا يستطيع الفرار أو التنصل منها، كما يوجد فى بيئة لم تنتظر قراره فى الوجود فيها من عدمه، أو رأيه فى تكوينها وتشكيلها. بالإضافة إلى الحتمية الجذرية، فإن المذهب السلوكى يرى أن الظروف هى التى تتيح للإنسان البقاء، وهى التى تحدد ماهية الوراثة للأنواع، أى إن البيئة هى التى تقوم باختيار السلوكيات التى تسمح للنوع بالبقاء، كما تستمر فى التحكم فى الإنسان. إن دور علم النفس فى هذه المدرسة هو فحص العلاقات بين الأحداث وبين النتائج السلوكية، ودراسة الخريطة الجينية Genetic Map، والتعرف على وظيفة كل " جين "، ودراسة عمليات وظائف الجهاز العصبى بالتفصيل، وذلك من أجل تحديد نمط مناسب لحياة الفرد. إن التكوين الوراثى التناسلى وتاريخ الشخص، مسئولان مسئولية تامة عن سلوك الإنسان، ومن خلالهما يمكن التنبؤ ومراقبة السلوك.

تحاول المدرسة السلوكية تخطى الظواهر الذهنية الخالصة بواسطة دراسة سلوك الأفراد، بدلا من دراسة وتحليل تفكيرهم أو شعورهم أو أحلامهم أو تذكرهم. كتب هنتر ميد فى كتاب " الفلسفة – أنواعها ومشكلاتها " عن السلوكية المنطقية: (إن السلوكية ترى أن الوسيلة الوحيدة التى يصبح بها علم النفس علميا هى أن يقتصر موضوعه على ما يمكن ملاحظته بطريقة مشتركة بين الذوات Intersubjective، وهذا

يعنى السلوك أو الفعل الظاهر، وضمنه الكلام وغيره من أوجه النشاط التى تستخدم الرموز، ومن ثم فإن السلوكى يدرس موضوعاته البشرية بنفس المنهج الذى يدرس به عالم النفسى الحيوانى موضوعاته الحيوانية – أى بوضعهم فى مواقف سلوكية يمكن ملاحظتها وتسجيل استجاباتهم). إن الإنسان فى هذا المبدأ هو كائن حى خاضع للملاحظة والدراسة والتحليل، وأخيرا التنبؤ لسلوكه.

عرف الدكتور شاكر قنديل فى موسوعة " علم النفس والتحليل النفسى " السلوكية فى الفقرات التالية: (اتجاه أساسى فى تفسير السلوك يرى أن الهدف الأساسى لعلم النفس هو دراسة السلوك الظاهر للكائن الحى، وذلك باعتباره متغيرا قابلا للملاحظة والتجريب. ومن هذا المنطلق فقد فسر السلوكيون معظم العمليات النفسية الداخلية من هذا المنظور. فالجزء من السلوك الذى لا نستطيع إخضاعه للملاحظة المباشرة ينبغى استبعاده. وفى أفضل الحالات فالسلوك الذى لا نستطيع تعريفه تعريفا إجرائيا قابلا للدراسة يعتبر متغيرا غيبيا ينبغى إسقاطه من الاعتبار... والأسلوب السلوكى فى الدراسة أسلوب علمى منظم لفهم السلوك كمجموعة من الاستجابات، فهو يركز على العلاقات بين المثيرات والاستجابات، ويخضع تلك الاستجابات لمواقف تجريبية دقيقة، ويستخدم القياس والإحصاء فى ضبط نتائج الدراسات، ويستبعد بذلك الأساليب الذاتية، والتقرير الذاتى، وعمليات الاستبطان، وذلك باعتبارها أساليب غير علمية). والذاتية Subjectivity هى تقييم الأمور / الظواهر / الأحداث/ الأشخاص/ الأشياء، تقييمًا متأثرًا بذاتية الباحث / الملاحظ، وشخصيته وميوله وعواطفه، وأى تعصب قد يبعده عن اكتشاف الحقيقة المجردة، أو يسبب انحرافه عن الرؤية الواضحة. أما الاستبطان Introspection فيعرف بالملاحظة الذاتية التى يقوم بها الفرد لعملياته العقلية والنفسية.

يرى صاحب المذهب السلوكى أن أهمية الحدث يتمثل فى السلوك الفعلى، أما التفكير والشعور وأمثالهما، فلا يكونان ذوى معنى إلا من حيث الفعل الناتج

من هذا التفكير، أو ما يؤدى إليه الشعور من فعل / سلوك، وعليه تتخلى المدرسة السلوكية عن التحليل النفسى، أو دراسة الذهن وتحليل الفكر حيث إنها لا تخضع إلى المراقبة والتجربة. من هذا المنظور تدعو الفلسفة التجريبية إلى التوسع فى المنهج السلوكى بحيث يطبق على كل العلوم التى تسمى بالعلوم " غير الفيزيائية "، واقترحت التجريبية اسم السلوكية المنطقية Logical Behaviorism، ورأت أن هذا الاتجاه سيكون عاملا مهما فى توحيد العلم، حيث لا يمكن تحقيق تكامل بين العلوم الفيزيائية والبيولوجية والنفسية والاجتماعية إلا بالتوسع فى المنهج السلوكى. إن السلوكية تمثل سيطرة الاتجاه المادى والحسى على التفسيرات النفسية والاجتماعية، والذى ساد الثقافات الإنسانية – خاصة الثقافات الغربية – فى القرن الماضى، إلا أن بعض علماء النفس قد اعتبروا هذا الاتجاه يمثل الآلية الجامدة البعيدة عن المشاعر الإنسانية. وفى السنوات الحديثة اتجه بعض المختصين بتعديل السلوكية الجامدة إلى سلوكية لينة تحافظ على الأسلوب العلمى مع الأخذ فى الاعتبار المشاعر الإنسانية، ومكنونه الداخلى فى اللاشعور.

يميز المذهب السلوكى بين فئتين عامتين من السلوك، وهما " الاستجابية " Respondent، و"الفاعلية" Operant. تشير الاستجابة إلى نمط خاص من السلوك المثار بنوع خاص من البواعث/ المنبهات / المثيرات، وهو يدل على نمط انعكاسى من الاستجابة، وأن هذه المثيرات تؤدى إلى السلوك. مثال على ذلك، فإن أى تغيير فى شدة الضوء يسبب انعكاسًا يتمثل فى غلق العين. إن ارتباط عيادة طبيب الأسنان بعمليات سابقة لخلع الأسنان، تصاحبها ألم شديد يؤدى إلى الخوف من ذكر أى حديث عن طبيب الأسنان، أو الأسنان عامـــة. أما السلوك الإجرائى / السلوك الفعال Operant Behavior، فهو ذلك السلوك الذى يعمل داخل البيئة والذى يؤدى إلى عواقب ونتائج، فهو سلوك معبر أكثر منه سلوك مثار أو

مستخرج، وهو من خصائص الكائن الحى النشط. إن السلوك الاستجابى يكون تحت الرقابة المباشرة لسوابقها، وينتج السلوك الإجرائى مبدئيا عن الكائن الحى فى غياب أى منبهات مثارة يسهل التعرف عليها، وبالتالى فهى منضبطة ومراقبة من خلال فحص نتائجها.

يعرف رد الفعل الانعكاسى Reflex كاستجابة إرادية لمنبه / مثير طبيعى. قد يكون الفعل المنعكس مشروطا Conditioned Reflex، أى عبارة عن استجابة لاإرادية تتم على المستوى الفسيولوجى، ولا يستطيع الفرد الامتناع عنها حتى لو أراد ذلك، وهذا الفعل المنعكس يتم تعلمه بشروط تجريبية. وضع هذه النظرية العالم الفسيولوجى الروسى بافلوب Pavolv، وقام بعمل تجربة على كلب جائع قدم إليه الطعام عدة مرات مع سماع صوت جرس فكان لعابه يسيل لرؤية الطعام. ارتبط تقديم الطعام بصوت الجرس، حتى إن لعاب الكلب يسيل بطريقة لاإرادية حين سماع الجرس، وبدون تقديم الطعام. أما الفعل الانعكاسى غير الشرطى فهو الذى لا يتوقف على شرط معين، مثل نزول لعاب الكلب دون ربط تقديم الطعام بسماع صوت الجرس.

يعتبر التعزيز Reinforcement، أى مكافأة السلوك الطيب والفعل الحسن من الحوافز المهمة لزيادة هذا النمط السلوكى لتكراره مستقبلا. ليس من الضرورة الالتزام بالتكرار المماثل – أى صورة طبق الأصل – ولكن قد يحدث سلوك مشابه له نفس التأثير ويعطى نتائج مماثلة. كثير من الناس يتبعون سلوكا مكررا لمجرد أن هذا السلوك أثبت نجاحه فى المرات الأولى، ليتحول السلوك إلى عادة، ومن الممكن نقله إلى آخرين ليصبح جزءا من الثقافة العامة. إذا ارتبط – مثلا – قراءة أجزاء من الكتب المقدسة، أو حتى الدعاء قبل دخول الامتحان، وحدث نجاح فى هذا الامتحان، فسيرتبط النجاح بالدعاء، ليصبح عادة يمارسها الفرد فى

الامتحانات التالية. أيضا يؤدى التشجيع إلى تعزيز السلوك، فتشجيع الطفل العدوانى والتفاخر بعراكه مع أقرانه يعتبر تعزيزا إيجابيا لتشجيع السلوك العدوانى، ليشب الطفل على هذا السلوك عند الكبر. إن تجربة التهديد والمضايقة من الأسباب التى تشجع أيضا على السلوك العدوانى، فالطفل أو الشاب الذى ينجح فى صد العدوان أو اتقاء أذى الآخرين عن طريق البدء بالعدوان، سيتعزز لديه السلوك العدوانى. وفى الطرف الآخر، فإن الشخص الذى مارس وعايش التعزيزات المسالمة غير العدوانية، فسيستمر فى هذا السلوك المسالم، إلا إذا مر بتجربة معاكسة شديدة الوطأ. ويفترض علم النفس السلوكى أن كلا من العدوانى السلوك، ودمث الأخلاق يحملان صفات جينية مختلفة أو متناقضة، قادرة على تنمية مجموعة من السلوكيات. فى نفس الوقت يوجد إمكانية حدوث تعزيزات مختلفة – إيجابية أو سلبية – ليصبح هذا السلوك له الصفة النمطية لكل منها. كما يوجد تعزيز إيجابى، يوجد أيضا تعزيز سلبى، والذى يعنى إزاحة شىء ما، أو تجنبه. إن كثيرا من المواقف قد تكون محملة بتعزيزات سلبية، فبعض النظم الدراسية قد تكون كئيبة ومملة لدرجة نفور الطالب منها، ويصبح إجباره على استكمال الدراسة من التعزيزات السلبية. أيضا فى حالة العامل الذى يشعر برتابة العمل والتأنيب المستمر من رؤسائه، فإنه يحاول إيجاد الفرص لعدم الذهاب إلى العمل مثل التمارض، أو أداء العمل باسترخاء وعدم مبالاة.

أعطى عالم النفس سكنر بعض الأمثلة للتعزيز المشروط فالمال مرتبط بالتقدم فى عدد من الأنشطة مثل العمل الشاق والذكاء والتدريب وهى تعتبر "تعزيزات أولية"، أيضا الدرجات العلمية مرتبطة بإجراء تعزيزات أولية نظرا لأن الحصول على الدرجة العلمية سيؤدى إلى الدعم الذاتى والاستقلالية والقدرة على شراء مستلزمات الحياة، والقدرة على الزواج. أما الانتباه والاهتمام والاستحسان والشعور بالآخرين، تصبح تعزيزات مشروطة بسبب ارتباطها

واشتراطها بتعزيزات أولية من خلال أفراد آخرين. فالآباء والأمهات الذين يمنحون أطفالهم الرعاية والاهتمام، يقدمون أيضا التعزيزات الأولية مثل الطعام والحنان. وبالرغم من ذلك يستنكر بعض الآباء والأمهات هذا الرأى. كتب روبرت ناى فى كتاب "السلوك الإنسانى" مثال على ذلك: إن الآباء أحيانا ما يكونون غير قادرين على فهم التعامل مع أطفالهم، فهم مزعجون وغير مستجيبين فى سلوكهم، فقد يقول بعضهم: لقد أعطينا أبناءنا أفضل الثياب، وكثيرا من المال، واستخدام سيارة الأسرة، وأرسلناهم لأفضل المدارس الخاصة، فكيف، وبعد كل ذلك، يتحولون إلى هذا السلوك؟.... إن التعبير غير المباشر هنا يعنى أنه: لابد مع كل تلك التعزيزات الإيجابية أن يكون سلوك الأبناء وفقا لرغبة الآباء.... ولكن ربما تكون الملابس والنقود الخ، لا تؤدى إلى سلوكيات مشروطة أو مرغوبة، بمعنى أن الآباء يقدمون كل شىء للأبناء دون إمداد بالتعزيزات كنتائج لسلوكيات معينة. واحتمال آخر أن بعض تلك الأشياء لم تكن حقا تعزيزات إيجابية. فإن أفضل الثياب أو المدارس الممتازة ربما تكون تعزيزات مؤثرة بالنسبة للآباء ولكنها ليست بالنسبة للأطفال. وأيضا، فإن كراهية الأطفال وعدم استجابتهم السلوكية قد تكون معززة إيجابيا وبقوة فى حالة موافقة رفاقهم. بجانب التعزيز يوجد طريق آخر لضبط السلوك والتحكم فيه من خلال العقاب، ولكن تأثيره محدود بالنسبة إلى التعزيز.

يتشكل السلوك الإنسانى على مراحل مختلفة، نظرا لتباين التعزيزات المختلفة، والاستجابات التى تتقارب تدريجيا حتى تصل إلى الاستجابات المطلوبة. وينتهى التشكيل إلى كثير من السلوكيات المرغوبة، وقد يصاحبه بعض السلوكيات غير المرغوب فيها نتيجة لتهاون أو ضعف الذى يقوم بالتشكيل، فالحنان الزائد من الوالدين قد يدفع الطفل إلى ابتزازهما. يمكن تطبيق التشكيل الشديد الإيجابية على عملية التعليم، وذلك عن طريق ترتيب المادة العلمية فى مراحل صغيرة

متتالية، ابتداء من الأسهل إلى الأصعب، فلا يجد الطالب صعوبة فى التحصيل واستيعاب الدروس، ويأتى التعزيز من حصول الطالب على درجات مرتفعة فيتولد الدافع لمزيد من التحصيل والاستيعاب فى المراحل الصعبة من المادة العلمية. إن الراتب الشهرى الذى يحصل عليه الموظف هو تعزيز مستمر لأداء العمل وتعتبر الحوافز المادية الإضافية، أو الحوافز المعنوية، تعزيزا إضافيا لبذل المزيد من الجهد والعمل بإتقان.

يحدث ضيق للإنسان إذا تعرضت العلاقة بين التعزيز والاستجابة للتوقف فجأة بعد فترة طويلة من التعزيز المستمر. إن توقف تشجيع الرياضى المتفوق أو الطالب، أو منع الحافز الشهرى للعامل المجد يعطى إحساسا بالإحباط والشعور بعدم الراحة، فتخمد السلوكيات التى ظهرت نتيجة للتعزيز السابق. إن معظم السلوك الإنسانى يكتسب عن طريق التعزيز المتقطع، فنادرا ما نجد الثقة الكاملة فى تعاملاتنا مع الآخرين، حتى الأصدقاء لا نستطيع أن نضفى عليهم السمة المستمرة للتعامل الصادق الأمين، فالإنسان تتحكم فيه دورات مزاجية، تعلو وتهبط، تشتد وتضعف. يتكيف الإنسان مع التعزيز المتقطع، فقد نعاقب أصدقاءنا أو نبتعد عنهم لفترة إذا صدر منهم سلوك غير مريح، ولكن تستمر الصداقة، والعلاقات الزوجية عادة ما تتأثر بموجات عاتية ثم تسكن لتعود المياه إلى مجاريها. إن السلوكيات البشرية تكتسب فى كثير من الحالات بواسطة التعزيزات المتقطعة، أو حتى التى قد تحدث بالصدفة، فالإنسان السوى مرن السلوك – بطبعه الفطرى – ويمتص أى تغيير متوسط الشدة فى تعامله مع الآخرين.

ظهر فى النصف الثانى من القرن العشرين فكر جديد لتحليل أسباب السلوك بإرجاعه إلى عوامل معينة وأسباب سابقة على الفعل، وسمى هذا الأسلوب فى المناولة بالإعزاء أو العزو Attribution. فى عام ١٩٥٨ نشر هيدر Heider كتابًا فى علم النفس الاجتماعى وسيكولوجية التفاعل بين الأفراد، فأدت أفكاره إلى

ظهور عدة نظريات فى عملية " العزو " والتى تحدث تحت تأثير المواقف الاجتماعية. لا تبحث نظرية الإعزاء فى طبيعة الفعل فى حد ذاته، وإنما تذهب إلى النظرية الذاتية وإلى ما وراء الفعل، وطرق تقيمه، ومصادره. فإذا أبدى شخص إعجابًا بآخر، فطبقا لهذه النظرية تظهر تساؤلات عن سبب هذا الإعجاب، أهو للتملق والرياء، أو إعجاب حقيقى ناتج من فعل معين وما هو هذا الفعل؟ أو ربما يكون السبب هو توافق فى الشخصية وانجذاب عام. قد يرجع سبب الحماس لعقيدة دينية معينة والدفاع عنها إيمان حقيقى، أو يكون مداهنة وأسلوب للوصول إلى أغراض مادية وكسب مالى، أو من أجل مجاراة المجتمع المحيط.

إن كثيرًا من البشر يميلون إلى التأثر باتجاهاتهم الفكرية، وقيمهم الأخلاقية والاجتماعية فى المواقف التى تتطلب الموضوعية، وهو ما يسمى بالانحياز أو التحيز Prejudice، وتعنى هذه الكلمة الهوى والتحامل. يبدأ التحيز بمنظور شخص أو جماعة ضد شخص آخر أو جماعة أخرى دون سند من المعلومات الصحيحة، أو المنطق السليم والأفكار الموضوعية، التى تبرز هذا التحيز، ويتراكم هذا المنظور أو هذه الفكرة حتى تتحول إلى عقيدة جامدة يصعب تغيرها. قد يقوم تفسيرنا لسلوك الآخرين على الانطباعات الذاتية، أو تتأثر بالمظهر الخارجى والمركز الاجتماعى، وقد يكون الحكم على شخص ما من مجرد الرؤية الخاطفة، أو من الانطباع الشخصى على الملامح، فنذهب إلى أن هذا الشخص من المحتمل أن يكون شريرا، وآخر قد يكون طيبا أو ساذجا. فالمظهر قد يدعو إلى الانحياز، والانطباع الأول قد يوجه التقييم والتحليل إلى مؤشرات خاطئة.

يحدد الإنسان – فى العادة – اتجاها لمسيرته فى الحياة، ويشكل هذا التحديد مجموعة من العناصر مثل الموروثات من جينات والشدة المتباينة للغرائز، والمنظومة البيولوجية للإنسان، ومن تجارب وتفاعل مع البيئة فى مجالات التعليم

والعمل والعلاقات العامة، وإعلام يغذيه بأفكار ويثير من وجدانه. ويتغير الاتجاه عندما يكتسب الإنسان اعتقادات جديدة مع إهمال المعتقات القديمة أو حين يحدث تشكيل جديد للوجدان بحيث يكون مشروطا بهدف. إن أى تغيير فى الاتجاهات يبنى على نفس أسس تكوينها، ولكن دائما ما يحدث مقاومة للمعتقدات الجديدة، فالإنسان بحكم القصور الذاتى (الكسل والجمود) Inertia يميل إلى القديم المعتاد عليه وينفر من الجديد – حتى إن كان فيه صالحه – ويستمر هذا النفور حتى يعتاد على الوضع الجديد أو المعتقدات الجديدة.

تفترض نظريات التوازن والاتساق أن الإنسان يحاول إلى الوصول إلى اتساق سيكولوجى بين اعتقاداته واتجاهاته وسلوكه، أى تنسيق وتناغم بين المعرفة والوجدان والفعل، وعندما يعى بوجود تناقض بين اعتقاداته واتجاهاته يكون مدفوعا نحو استعادة الاتساق. تعددت مفاهيم الاتجاه، ولكن أشهرها تعريف البورت الذى يعتبر الاتجاه: حالة استعداد عقلية ونفسية وعصبية تتكون لدى الفرد من خلال الخبرة العملية والتجارب التى يمر بها. وتؤثر حالة الاستعداد تأثيرا ملحوظا على استجابات الفرد وسلوكه إزاء جميع الأشياء والمواقف التى تتعلق بتلك الحالة. ويعرف سانفورد الاتجاه بأنه: استعداد مكتسب ودائم للسلوك بطريقة ثابتة نحو موضوع معين. والاتجاه ليس سلوكا ولكنه دافع يكمن وراء السلوك، لذلك فإنه حالة مكتسبة وليس فطرية، كما أنه ثابت نسبيا. والاتجاه يشير إلى شعور الفرد وآماله ومخاوفه ومعارفه وتحذيراته، والتى تدور حول موضوع معين.

تذهب نظرية هيدر Heider فى التوازن والاتساق، أنه إذا كانت هناك علاقة وجدانية قوية إيجابية بين فردين، فإنهما سوف يشعران بالاتساق إذا كانت اتجاهاتهما المهمة والرئيسية متفقة. أما إذا اختلفا فى الاتجاهات المهمة فإنهما يشعران بعدم الاتساق. ويفترض هيدر أيضا أن علاقات الاتساق تبعث على

الارتياح السيكولوجى والاستقرار ومقاومة التغيير، بينما تثير علاقات عدم الاتساق بعدم الراحة والإجهاد النفسى. وفى حالة أن يكره فردان كل منهما الآخر، تكون العلاقات الوجدانية متوازنة إذا اختلف الطرفان فى اتجاهاتهما، فمثلا إذا اكتشف شخص آخر يكرهه كراهيه شديدة، ولكن يشاركه فى معتقداته الدينية أو ايدولوجيته السياسية، فإن نظرية التوازن ترى أن هذا الشخص سوف يعانى وسوف يكون مدفوعا لاستعادة التوازن إلى هذه العلاقة، بينما إذا كان الشخص الآخر الذى يكرهه له معتقدات مختلفة، فإنه لن يكون هناك ضغوطا إلى التغيير، فالكراهية قائمة من الأساس. فخلاصة هذه النظرية هى: لما كان الإنسان يحب من يشاركه فى آرائه الأساسية، ويكره من يخالفه الرأى، لذلك حين لا يتفق الموقف مع هذا الغرض، فإن الإنسان يكون مدفوعًا إلى استعادة التوازن فى العلاقة، بتغيير الاتجاه من الآخر، حتى يتلاقى الطرفان على نفس الأفكار ونفس الآراء، ولا يتنافران. يوجد بعض الطرق للتقليل من شدة التنافر، منها تنازل أحد الطرفين من خلال حافز مادى أو معنوى، أو الالتقاء فى منتصف الطريق، ويتم ذلك بتغيير بعض من المفاهيم والمعايير وبعض من المرونة، فإن أكثر الناس ذكاء هم أكثرهم مرونة.

كتب الدكتور لويس مليكة فى كتاب " سيكولوجية الجماعات والقيادة " عن وضع مبدأ الاتساق فى السلوك الظاهر: (أن مبدأ الاتساق، بالإضافة إلى تأثيره فى تغيير الاتجاه، يمكن أن يتوسط التغيير فى السلوك الظاهر كما يحدث فى الانصياع إلى رجاء أو مطلب. ويستخدم فى ذلك أسلوبان: الأول يبدأ بمطلب صغير، يقبله الشخص عادة، ثم ينتقل إلى مطلب أكبر. وقد وجد أن هذا الإجراء ييسر تقبل الفرد للمطلب الكبير. ويفسر ذلك على أساس الاتساق، أى إن الفرد بعد أن يستجيب للمطلب الأول الصغير، ينظر إلى نفسه على أنه أكثر استعدادا لتقبل المطالب الأكبر. والتكتيك الانصياعى الآخر القائم على أساس ضغوط الاتساق يتمثل فى

أسلوب " الكرة المنخفضة ". وتعنى هذه الظاهرة أنه إذا اتخذ قرارًا بالقيام بفعل، فإنه ينزع إلى الصمود، حتى بعد زيادة ثمن أو تكلفة أداء العمل. وفى التجارب فى هذا المجال، يطلب من الفرد اتخاذ قرار إرادى لأداء سلوك مستهدف، ثم تزداد تكلفة أداء السلوك بعد ذلك. وقد وجد أن الانصياع لمثل هذا المطلب يكون أكبر مما لو علم الفرد بالتكلفة المرتفعة منذ البداية... وفى ضوء نظرية التنافر المعرفى، قد يكون من الضرورى استخدام الدرجة الكافية من القهر للحصول على الانصياع، لأن ذلك سوف يخلق تنافرا بعد الانصياع يليه تغيير فى الاتجاه، وقد يكون ذلك ضروريا فى الحالات التى يكون فيها التغيير مطلبا ملحا). وخلاصة القول إن الإنسان يتقبل الأسلوب التدريجى على عكس أسلوب الجرعة الواحدة.

يوجد بعض الظواهر الأخرى الذى يتميز بها السلوك الإنسانى فى مجال الاتساق، ومنها ضبط الانطباع Impression Management بمعنى أن الفرد ينشأ على " المظهر الاتساقى " أمام الآخرين، فإذا كان ينادى بتطبيق التعليمات الدينية، فإنه يقوم بتطبيق هذه التعليمات على نفسه، على الأقل أمام الآخرين. أما بالنسبة لظاهرة التعرض الانتقائى Selective Exposure فتفترض أن الناس يميلون إلى المعلومات والمعرفة التى تتفق مع اعتقاداتهم واتجاهاتهم وسلوكهم، ولكن يسعون أيضا – من منطلق الفضول وحب الاستطلاع إلى المعلومات التى تتنافر مع معتقداتهم.

يمكن التأثير فى السلوك الإنسانى بأسلوب " مجابهة القيم " Value Confrontation، أو ما يسمى بمواجهة الذات. يمزج هذا الأسلوب بين نموذج الاتساق (أى التنسيق والتناغم بين الاعتقادات والسلوك والاتجاهات)، وبين النموذج الوظيفى. ويفترض النموذج الأخير أن الاعتقادات والاتجاهات التى تسد حاجات مهمة للفرد، تقاوم – فى العادة – التغيير، كما توجد أربع وظائف أساسية للاتجاهات وهى:

١- يتكون الكثير من اتجاهات البشر نتيجة الثواب والعقاب اللذين مر بهما من خلال تجاربه السابقة، أى إن الاتجاهات تخدم الإنسان بوصفها أداة موظفة لزيادة الثواب وللإقلال من العقاب فى المستقبل.

٢- وظيفة المعرفة المساعدة على فهم وتفسير ما يصعب شرحه بدون هذه المعرفة.

٣- حماية الفرد من الحقائق المؤلمة، وهى من الحيل الدفاعية التى تستخدم للدفاع عن " الأنا "، كما تحمى تقدير الشخص لذاته.

٤- تؤدى الاتجاهات وظيفة التعبير القيمى، وهو نوع من الاتجاهات يسمح للفرد بالتعبير عن فرديته وهويته وقيمه.

يهدف أسلوب مجابهة القيم إلى التأثير فى الناس لتغيير الأهمية التى ينسبونها إلى قيم معينة، وبالتالى التأثير فى سلوكهم. فإذا كانت القيم مركزية، فإن الاعتقادات المرتبطة بتصور الفرد لنفسه من حيث القوة / الضعف، الانفعال، الفكر،... تكون أيضا مركزية. وإذا إمكن توعية الفرد بالتناقض بين قيمه وبين تصوره لذاته، فإنه يمكن دفعه إلى تعديل قيمه الأقل مركزية بحيث تتسق مع تصوره لذاته.

يعرف علماء النفس السلوك الشاذ Abnormal Behavior بأنه سلوك غير طبيعى ومختلف عن المتعارف عليه وأن مدلوله نسبى يختلف باختلاف الثقافات والمعايير السائدة، والقيم المتعارف عليها. جاء فى موسوعة "علم النفس والتحليل النفسى" عن السلوك الشاذ: (عبرت وجهات نظر علمية متعددة عن تحديد لمعنى السلوك الشاذ وتبلورت هذه الاتجاهات فى وضع معايير أهمها المعيار الإحصائى والمعيار الثقافى والمعيار المرضى والمعيار المثالى...). يستمد المعيار الإحصائى خصائصه من المنحنى الطبيعى Normal Distribution الذى يمثل فيه الاحتمال، بالمساحة تحت المنحنى، والأفراد الذين يتمثلون فى منطقة الوسط هم الأسوياء،

أما الأفراد الذين يتمثلون عند طرفى المنحنى فهم غير أسوياء. يلتزم المعيار الثقافى بمعايير المجتمع، وهى معايير نسبية، ويعتبر الخروج عن السلوك الجماعى، سلوكا منحرفا. والمعيار المرضى يعتبر السلوك شاذا إذا قام الفرد بسلوك يندرج تحت الدلالات المرضية فى علم الأمراض النفسية والعقلية. أما المعيار المثالى – كما جاء فى المرجع السابق – هو المعيار الذى يأخذ الفرد على عاتقه الاحتذاء به ومحاولة التقرب منه، بحيث يصبح سلوكه متطابقا معه، ويعتبر أى سلوك خارج هذا المعيار، سلوكا شاذا أو منحرفا. إن نسبية المعايير تأتى من ديناميكية النظام البشرى الذى يتغير مع الزمن وعليه يتغير المعيار، حتى وإن لم يتضح هذا التغيير على المدى الزمنى القريب.

يعتبر تدمير الذات Self - Destruction درجة شديدة من عقاب الفرد لذاته، يلتمس فيها كل الطرق المباشرة وغير المباشرة للأضرار بذاته. إن إدمان المخدرات بأنواعها المختلفة، والسرقة والاختلاس، وإهمال الطالب لدروسه.. كلها سلوكيات تؤدى إلى تدمير الذات. قد يرجع الإنسان هذا السلوك المدمر إلى الظروف السيئة أو الحاجة للمال أو الحظ العاثر، أو خلافه من المبررات التى دأب الإنسان على الاستعانة بها. يرى علماء النفس أن النزعة إلى تدمير الذات ترجع أساسا إلى أن الفرد يوجه جزءا مما لديه من غريزة العدوان إلى ذاته، وأنه كلما استعصى على الفرد توجيه العدوان إلى العالم الخارجى ارتد إلى الداخل، واتجه إلى ذاته لتدميرها للتنفيث عما بداخله من طاقة عدوانية، ويسلك سلوك الطفل عند الغضب عندما لا يستطيع توجيه العدوان إلى من كان السبب فى إثارته وغضبه، فيقوم بضرب رأسه فى الحائط أو ضرب قدمه فى الأرض. تذهب مدرسة التحليل النفسى إلى أن كثيرا من مظاهر الاكتئاب وأعراض جنون الاضطهاد تعود إلى الرغبة فى تدمير الذات، والتى قد تصل إلى حد إنهاء الذات بالانتحار.

وأخيرا... أشارت نتائج الدراسات البيولوجية إلى أن نسبة تأثير العوامل الوراثية – صفات بيولوجية وجينية – على سلوك الإنسان يصل إلى ٨٠ ٪ من مجموع المؤثرات، ويتبقى ٢٠ ٪ للعوامل البيئية من تعلم وتجارب حياتية. بدأت الأبحاث فى تحديد الجينات المسئولة عن كل سلوك، ففى عام ١٩٩٦ قاد العالم الألمانى بيترليش من جامعة ويرزبرج الألمانية، أول فريق بحثى ليتوصل إلى أحد هذه الجينات المسئولة عن السلوك العصبى، وهذا الجين الذى سمى البروتين 5 HTT يقوم بدفع الجزئيات التى تنظم الكيمياء المزاجية ونقل الإشارات من الخلايا العصبية إلى المخ. بعد ذلك بسنوات توصل فريق آخر من العلماء إلى الجين المسئول عن الانبساط وأسماه بالدوبامين، وكشف فريق آخر عن جينات أخرى تؤثر على التغيرات السلوكية، وتحديد الشخصية الإنسانية. وتؤدى كل هذه الدراسات إلى طريق واحد وهو طريق الحتمية السلوكية.

الدوافـــع

يتمثل الدافع Motive فى إشباع حاجة أو تحقيق هدف أو التصرف تبعا لعادة مكتسبة، ويصاحب الدافع فكر وسلوك. وفى المعنى العام للدافع يعتبر المثير دافعا أيضا، يسير الإنسان نحو سلوك معين. تتبع عملية إشباع الحاجة أو تحقيق هدف ما من استثارة داخلية للإنسان، فمثلا فى حالة الجوع عند استهلاك الطعام وتحولـه إلى طاقة تتبادل الإشارات بين المخ والنظم الداخلية لجسم الإنسان ليظهر الإحساس بالجوع، كما تتم الإثارة الجنسية عن طريق الرؤية أو السمع أو حتى التخيل. وفى حالة الصراع يبدأ الإنسان فى الانفعال والتحفز استعدادا للعراك والقتال، وكلها عمليات داخلية ينظمها مخ الإنسان. وبصفة عامة يشعر الإنسان بالارتياح عند تحقيق الهدف، وبالاستياء والضيق عند الفشل.

وتعتبر عملية إشباع الحاجات الأساسية وإشباع الغرائز من أهم الدوافع لدى الإنسان، كذلك ينبع دافع تحقيق الهدف من الغرائز، فإن هدف الوصول إلى مركز

اجتماعى أو سياسى مرموق ينشأ بطريقة شعورية أو لاشعورية من إشباع بعض الغرائز المركبة معا مثل غرائز السيطرة والتملك وحب الاجتماع والصراع. إن إشباع العواطف مثل عاطفة الحب التى لا يعتبرها بعض علماء النفس غريزة أولية ولكن عاطفة مركبة تستثار أيضا عن طريق تفاعل أكثر من غريزة معا ومنها الغريزة الجنسية وغريزة الخنوع عند بعض الناس وغريزة التملك عند آخرين.

إن وجود الدافع أو المثير هو الذى يملى علينا أنماطًا معينة من السلوك والانفعالات المختلفة من صراع أو سكينة أو الشعور بالحزن والألم أو الشعور بالسعادة والهناء. يمكن تقسيم الدوافع إلى دوافع أولية أو ما يسمى بالدوافع العضوية وإلى دوافع ثانوية وهى دوافع نفسية اجتماعية أو دوافع ذاتية تختلف من شخص لآخر، وتتبع الدوافع الأولية من الفطرة حيث إنها دوافع لم يكتسبها الإنسان عن طريق الخبرة أو التعليم ومن هذه الدوافع الحاجة إلى الهواء والطعام والشراب والجنس والمأوى. يختلف السلوك لإشباع هذه الدوافع إلى عوامل كثيرة منها وراثية فى جينات الإنسان ومنها مكتسبة من البيئة فى المنزل ودور التعليم والعقيدة والثقافة بصفة عامة كما يختلف السلوك تبعا لشدة الحاجة، أى قوة الدافع، فالإحساس بالجوع أو العطش قد يؤدى إلى الطلب أو الاستجداء أما إذا اشتد هذا الإحساس فقد يؤدى ذلك إلى أذى الغير إذا لزم الأمر للحصول على الطعام أو الشراب.

إذا كانت الدوافع الأولية مشتركة بين جميع الناس فإن الدوافع الثانوية هى دوافع شخصية تختص بالفرد ذاته وتعتبر الأساس فى اختلاف إنسان عن آخر من حيث الميول والأخلاق والشخصية، وتتبع هذه الدوافع من البيئة والوراثة معا فإذا كانت الدورات الطبيعية (المزاجية Mood، والذهنية Intellectual، والنشاطية Physical) والتى لها تأثير على سلوك الإنسان بصفة عامة تعتمد قوتها وتوقيتها على جيناته وميعاد ميلاده فإن الخبرات المكتسبة أيضا قد تحد من قوتها أو إلى

زيادة حدتها، فقد تكون الألعاب الرياضية العنيفة مثل الملاكمة والمصارعة هى البديل لغريزة العراك والصراع، كما تنظم الأديان والقوانين الموضوعة العلاقات الجنسية. كان المصرى القديم – فى العصور الفرعونية – يتزوج من أخته أو أمه أو ابنته وكانت تنتشر فى بعض القبائل الأفريقية والآسيوية عادة تعدد الأزواج، وكانت ليلة الزواج الأولى من نصيب أمير الولاية أو العمدة فى بعض البلاد الأوروبية. إن هذه الدوافع (الصراع – الجنس...) تعتبر دوافع مركبة أو دوافع معقدة تتأثر بالبيئة المحيطة وتتغير بمرور الزمن.

إن شعبا نهريا مثل شعب مصر الذى عاش على مر القرون الماضية على ضفاف النيل أو فى دلتاه يحصل على الماء اللازم للشرب أو للرى بسهولة من النهر، أصبح شعبًا بحكم العادة لا يميل إلى العدوان أو الصراع وتعلم هذا الشعب الصبر من الزراعة فهو يبذر الحب ويرويه وينتظر وقتا طويلا حتى يحصد ثمار كده، لذا لم يترك هذا الشعب جوار نيله حتى عندما شعر بضنك العيش ومحدودية موارده، لقد أثرت بيئة المكان على شخصية هذا الشعب فأصبح مسالمًا يمكن السيطرة عليه، أما الإنسان الذى يعيش فى بيئة بدوية صحراوية حارة تتناثر أفراده أو جماعته والذى يبدأ نشاطه فى الصباح الباكر أو عند غروب الشمس لاتقاء وهج الشمس وحرارة الطقس لا يستطيع - حتى أيامنا هذه - الحياة فى مدينة عامرة بالسكان أو فى مبان مشتركة مع عائلات أخرى، فقد تعود على نمط العائلة المنعزلة عن الآخرين. هذا من ضمن الأسباب التى أدت بالشخصية الشرق أوسطية على مر القرون إلى التفوق فى نظم الشعر والعاطفة الجياشة، إن منظر غروب الشمس أو شروقها والفضاء الواسع المفتوح أمام الإنسان أو منظر فتاة يندر أن يراها إلا على أوقات متباعدة تثير فيه عواطف وأحاسيس كثيرة تختلف عن عواطف إنسان يعيش فى بيئة تغطيها الثلوج أكثر أوقات السنة كامنا فى

منزلـه ذى الأبعاد المحدودة، فمن الأفضل له أن يعيش وسط جماعات ليشعر بالدفء ويتغلب من خلال الجماعة على الوحدة والإحساس بالضيق والملل. وبالطبع فإن الإنسان الذى يعيش فى الغابات والأحراش ذات المناخ الممطر الرطب والذى يتعرض دائما إلى هجوم حيوان مفترس جائع سيكون عنيف السلوك، عدوانيا، سريع الحركة، يتوقع الخطر والعدوانية ممن حولـه، دائم الصراع، وكثير العراك.

إن كثيرًا من السلوك ينبع من دوافع غريزية فى الأصل فمثلا سياسة القطيع أو التقليد نابعة من غريزة حب الاجتماع أو غريزة الخنوع، فيشعر الفرد أنه بتقليد فرد أو مجموعة يتقرب منها ويصبح فردًا منتميًا إلى هذا المجتمع وجزءًا من هذا النسيج الذى يتقرب منه أو يحس بلذة مازوكية من سيطرة فرد آخر عليه والسير فى ركاب الفرد المسيطر. إن الإعلانات التجارية عبر الراديو والتليفزيون وهرولة أفراد المجتمع فى اتجاه معين وراء فنان أو فنانة مشهورة أو وراء رجل أعمال أو سياسى ناجح هى مثال جيد لسياسة القطيع وأساس علوم كثيرة منها التسويق والاقتصاد وإدارة الأعمال، وهى أيضا أساس ظهور الزعماء والمبشرين من ناحية وظهور الدجالين والنصابين من جهة أخرى، فقد سار كثير منا وراء شرك النصب والاحتيال لمجرد أن صديقا أو قريبًا أو زميلاً فى العمل سار فى هذا الطريق وبدون أن نتحرى أو نفكر فى صعاب الطريق أو نتائجه أو إذا كان هذا الطريق يؤدى إلى منفعة أو يؤدى إلى هلاك.

دافع آخر وهو التملك، أو الرغبة فى الحصول على شىء ما، غالبا ما يكون مفيدا أو جذابا، والتملك استعداد فطرى موجود لدى جميع البشر وإن اختلفت شدته من ثقافة إلى أخرى. أما تأكيد الذات فهو دافع الحاجة إلى التقدير وإظهار السلطة على الغير، والرغبة فى الزعامة والقيادة، ويظهر هذا الميل حتى فى أضعف

obeikandl.com

الناس وأقلهم شأنا. إن الضعيف ينتهز الفرصة السانحة لإظهار نفوذه على من هم أضعف منه، وقد يصل به إن يظهر سلطته وقوته على حيوان ضعيف أو طفل لا حول له ولا قوة. اختلف علماء النفس عن كون هذا الدافع فطريا أو مكتسبا، ولكنه دفاع يتواجد بصفة عامة، وبشدة مختلفة فى جميع البشر.

وأخيرا يأتى الكلام إلى دافع مهم ومثير، قد يؤدى إلى رفعة أو ذل الإنسان أو تأخره، وهو دافع الصراع والقتال، والميل إلى الهجوم والعدوان. أصبح من المسلمات البديهية أن الاتجاه إلى الصراع، والميل إلى العدوان هى غريزة فطرية كائنة فى الجينات الموروثة التى لا يستطيع الإنسان – حتى الآن – التخلص منها، وإن كان فى الإمكان تهذيبها والتقليل من شدتها. كان الصراع فى العصور الأولى يقوم على محاولة انتزاع ما حصل عليه الآخر من متاع الأرض التى كانت فى ذلك الوقت مشاعا للجميع. كانت الحرب أساسا من أجل الثأر والانتقام، أو تنفيثا لهذه الغريزة المكبوتة والمجهولة لدى الإنسان الأول. كانت الشريعة حين ذاك تقوم على قاعدة "القوة هى الفيصل"، فلم توجد قيم للحق والباطل، أو الخطأ والصواب، أو الجيد أو السيئ، أو المفروض أو الممنوع،... إلى آخره. جاءت الحضارات الأولى بالخطوط الأولى للقيم الأخلاقية ومنها القيم التى تختص بالحروب، وذلك بعد أن أصبحت الحروب جزءا من ثقافات هذه الحضارات، مثل "حورس عند المصريين"، "وآشور" عند الآشوريين، و"مارس" عند اليونان.

اختلفت ثقافة الحروب من حضارة إلى أخرى، فكانت تتميز بالوحشية والعنف والقسوة فى الحضارة الآشورية، فى حين كانت تتميز بالاعتدال فى الحضارة الفرعونية. كانت الفلسفة الكونفوشوسية فى الصين تدعو إلى ضرورة نشر السلام، ومقاومة الشر، والاتجاه إلى الخير لجميع البشر، فالإنسان فى هذا العالم يجب أن يتسم بأربعة مبادئ أساسية وهى: العلم الغزير، والطبيعة السمحة،

والعزيمة القوية، وأخيرا محبة الأصدقاء دون كراهية الأعداء. عرفت الحضارة الصينية القديمة حول منتصف الألفية الأولى قبل الميلاد، نظاما قانونيا للحروب، ينص على أن لا يجب أن تقوم الحرب إلا بين دولتين متساويتين، ولا تقوم بين دولة إقطاعية وإحدى توابعها، وكذلك بين مجموعة الدول الصينية أو العائلة الصينية. أما بالنسبة للحضارة الهندية القديمة فقد صدر قانـــون "مانو" – الذى جمع عام ألف قبل الميلاد من نصوص سابقة عليه – المعاملة الإنسانية التى يجب أن تطبق فى حالة الحروب، فالمحارب الشريف لا يضرب عدوه النائم أو الذى فقد ذراعه أو كان عاريا أو الذى يولى الأدبار. تمنع هذه القوانين أيضا قتل العدو المجرد من السلاح أو الذى استسلم، كما توجب إعادة الجرحى إلى ذويهم فور شفائهم، كما تنص على عدم مشروعية الأسلحة المسممة.

يعتبر التعصب هو الوقود الأساسى الذى يغذى نيران الصراع وخاصة الصراع العقائدى. والتعصب عامة هو الميل إلى فكرة / رأى / عقيدة ما، أو الاتجاه نحو أو النفور من فرد أو جماعة ما، فالتعصب قد يكون سلبيا بمعنى البعد والنفور، أو إيجابيا بمعنى الميل والاتجاه نحو موضوع التعصب. كانت العقيدة الدينية – وما زالت – الموضوع الرئيسى للتعصب، لذلك أصبح من السهل توظيفها واستخدامها فى معظم أحداث الصراع. إذا كان غالبا ما يكون سبب الصراع هو الإحباط، فإن فى كثير من الأحيان يسمح أطراف الصراع بدخول العنصر الدينى فى الصراع القائم من أجل اجتذاب أكبر قدر ممكن من الدعم والمساندة من الذين يعتنقون نفس العقيدة.

إذا استطاع الإنسان إشباع جميع دوافعه – البيولوجية والسيكولوجية – بمجرد الإحساس بها أو التفكير فيها، فلن يصاب بالإحباط، وبالتالى لا ينتج الصراع النفسى. ولكن الإنسان – بطبيعته – محدود القدرات، ولا يملك القوى والإمكانيات لتحقيق جميع أهدافه وتلبية جميع رغباته، فى واقع مفعم بالمعوقات،

وملىء بالتحديات والمنافسة. تتفاوت المعوقات فى شدتها، فهى أحيانا تسبب الضيق المؤقت للفرد، وأحيانا أخرى تتمكن منه فيشعر باليأس والخيبة وفقدان الأمل. بجانب شدة أو ضعف المعوقات، فهى تصنف أيضا من حيث النوع، فهناك معوقات تتصل بالبيئة مثل شدة الحرارة / أو الصقيع أو من صحراء جرداء أو جبال عاتية. وهناك أيضا معوقات اجتماعية تنتج من تفاعل الإنسان مع المجتمع بسبب القيم والمعايير السائدة فى المجتمع والتى قد تختلف وتتعارض مع قيم ومعايير الفرد. وتبدأ هذه المعوقات فى مرحلة الطفولة من خلال الأوامر والنواهى والقيود التى يفرضها الوالدان على الأبناء. أما المعوقات الوراثية والمرضية فهى التى يولد بها الفرد أو يصاب بها بعد الولادة، مثل العمى أو الصمم أو الشلل، وهى معوقات تحد المصاب عن إشباع الكثير من دوافعه. بالإضافة إلى ما سبق يوجد أنواع أخرى من المواقف الإحباطية تنشأ من موقف الاختيار بين أمرين، قد يكون كلاهما غير مفضل للفرد، أو كلاهما محببًا له، وقد تصل موازنة الفرد قبل الاختيار إلى نوع من الصراع الذهنى يكون سببا فى حيرته.

يوجد نوعان من الصراع، أحدهما يدور فى مجال الشعور حيث يدرك الفرد أبعاد الصراع، ولا يسبب هذا النوع أى كبت، أو عزل أفكار أو ميول أو رغبات من الشعور إلى اللاشعور. أما النوع الثانى فيحدث فى مستوى اللاشعور، حيث يجد الإنسان نفسه أمام رغبات وحاجات لا تسمح له ظروفه الاجتماعية أو الشخصية بتحقيقها، فيتجه الإنسان إلى كبتها ودفنها فى اللاشعور. لا تظل هذه الرغبات راسبة فى اللاشعور دون حركة، بل تكون فى نشاط وتوثب فى انتظار الفرصة السانحة للخروج من اللاشعور، أو للانطلاق التدميرى إذا وجدت أى منفذ للتحرر، ولكن تكمن لها النفس الشعورية أو " الأنا العليا " كحائل بينها وبين التنفيذ، فيحدث الصراع النفسى – الأشد خطورة – والذى ينتج عنه الكثير من الأمراض النفسية والعصبية.

وأخيرا... إن تقبل الذات Self-Acceptance هو رضاء الفرد عن نفسه وعن قدراته وإمكاناته واستعدادته الخاصة، مما يصل بالفرد إلى درجة عالية من السعادة والراحة النفسية. والإرضاء Satisfaction هو إشباع الحاجة وتحقيق المطلب الذى يلح عليه الدافع، ويصاحب عملية إرضاء الدافع شعور بالانتشاء واللذة. وكلما توافقت حاجات الإنسان ورغباته مع قدراته وإمكانياته، استطاع أن يحقق رغباته دون التثبيط من طموحه. إن القناعة – دون الحط من القدرات الشخصية – هى ملكة نفسية تصل بالإنسان إلى حالة السعادة والانتشاء.

إرادة حرة... أم هى حتمية سلوك؟

إذا تعرف الإنسان على الخير الأسمى، وقام بتحديد القيم الأخلاقية ومعاييرها، وظهر له طريق السلوك المثالى واضحا وجليا، فهل فى هذه الحالة سيسير فى هذا الطريق.....؟

هل هذا المخلوق الذى وجد فى هذا الكون، ومر بمراحل نموه وتطوره، هو حر الإرادة، أم تسيره قوانين العلة والمعلول...؟

وإذا سلمنا بالحتمية، وأن الحدث سيحدث وفقا لأحداث سابقة عنه، تجمعت من أجل ميلاد هذا الحدث، فهل هذا الحدث مقدر منذ البداية؟ أو إن تسلسل الأحداث يتم دون معرفة مسبقة...؟

نبدأ بالخوض أولا فى التعريفات، ونبدأ بالقدرية Fatalism التى يعتبرها الغرب فكرا شرقيا خالص من نتاج العقائد الدينية وثقافة الحضارات القديمة. القدرية هى مذهب الحتمية المقدرة Predeterminism، ويعتبر هذا المصطلح مرادفا للجبرية Predestination. فى القدرية يكون كل حادث فى الكون مكتوبًا أو مقدرا منذ البداية، من حيث وقت حدوثه وطريقة حدوثه وأخيرا ناتج الحدث، وليس ثمة وسيلة لتغيير هذا الاتجاه المقدر للحوادث، فالحدث حادث فى هذا الوقت وهذا المكان، وجميع الأحداث معلومة للخالق. تؤكد القدرية على أن المصير /

العلة شيء خارج تماما عن الكائن العضوى، فالخالق / القوى المطلقة هى التى تتحكم فى أقدارنا، وليس لأى مخلوق أى سلطان عليها، وما على المخلوقات إلا الاستسلام لأقدارها. يدعم أصحاب مذهب الحتمية / القدرية حججهم ببعض العوامل التى يرونها حقائق من وجهة نظرهم ومنها:

- الجينات الوراثية التى تحول الكائن البشرى إلى نتاج للجينات المتوارثة والتى لها تأثير كبير فى تشكيل الشخصية الفردية، وأنماط سلوكه، ومعايير اتخاذ قراراته.
- المجتمع الذى يتواجد فيه الإنسان والمقدر له سلفا، والمحكوم بثقافته، وعقائده، وقيمة ومعاييره.
- القوانين الآلية فى الطبيعة فى مختلف مجالاتها الفيزيائية، والكيميائية، والبيولوجية، والاعتقاد بأن المادة الحية ما هى إلا تجمع معقد من العناصر الفيزيائية والكيميائية والتى تخضع للقوانين الآلية.
- شواهد علم النفس الحديث على أن قدرا كبيرا من السلوك البشرى يخضع لدوافع لاشعورية، فلا هى عقلية ولا هى منطقية، ومنها الأمراض النفسية والجنون، وإثبات العلم الحديث أن للجينات المتوارثة تأثيرًا مباشرًا فى حدوثها.
- نظرية الحتمية الاقتصادية التى ترى أن التاريخ ما هو إلا صراع يتنافس فيه الطبقات الاجتماعية من أجل الحصول على المزايا المادية.

من منظور الاتفاق والاختلاف بين الحتمية والجبرية، كتبت الدكتورة يمنى الخولى فى كتاب "العلم والاغتراب والحرية": (إن الحتمية تطوير للجبرية، غير أنه تطوير جوهرى يجعلها تفترق عنها افتراقا بينا...، فالجبرية تعنى أن ما يحدث قد قدر أزلا وكان حدوثه محتوما، غير أنها نتيجة للقول بقدرة الله على كل شيء، وإحاطته علما بالأشياء كلها، ومعنى هذا أن ما يحدث وفقا لإرادة الله، وأن المستقبل إذا كان داخلا فى علمه تعالى، كان حدوثه بحسب علمه واجبًا. الجبرية إذن تعلق ضرورة حدوث الأشياء على مبدأ أعلى منها يسيرها. إنها ضرورة

متعالية، والكون نظام مفتوح عليها، على الله، أما الضرورة فى الحتمية العلمية، فكامنة فى قلب الأشياء سارية فيها، وهى الطبيعة ذاتها، فالكون نظام مغلق على نفسه مستكف بعلله الداخلية. لذلك فأحداثه حتمية، لا بالنسبة لأمر خارق للطبيعة، بل بالنسبة للطبيعة ذاتها ولقوانينها الفيزيائية. وهذه القوانين وإن كانت لا تقل فى صرامتها عن المصير الجبرى، فإنها عمياء لا تستجيب لدعاء ولا تحابى الناس أو تكرههم... وبينما تجعل الجبرية المستقبل هو الذى يحتم الماضى عن طريق الغاية، تجعل الحتمية الماضى هو الذى يحتم المستقبل عن طريق العلة،... إن الحتمية مبدأ عقلانى أولا وأخيرا، ولن تتفق معه أية محاولة لشرح الظواهر الفيزيقية بردها إلى العناية الإلهية والأرواح المبرأة من الأجسام، لأن طبيعة هذه الكيانات – التى قد تتسع للجبرية – ليست محددة بما يكفى لاستنباط نتائج تجريبية منها. هذا التحديد المطلق الذى تشترطه الحتمية ينتفى مع الجبرية، فالإرادة الإلهية مثلا يمكن أن تفسر كل شىء سواء حدث بهذه الطريقة أو تلك، بحتمية أو بلا حتمية. الحتمية العلمية بهذا تستبعد الأشباح والقوى السحرية والتأثيرات الفائقة للطبيعة، لتعنى أن كل الظواهر الطبيعية تعتمد فقط على شروط مادية، وأنها أيضا لتنكر على هذا الكون العواطف والخيالات والأفكار، وكل الأحداث العقلية البحتة وكل ما هو لا مادى، وجميعها كيانات يسهل استنباطها من الجبرية).

تشكل العلية Causality محور الخلاف بين الجبرية والحتمية، والعلية، كما عرفتها د. يمنى الخولى فى المرجع السابق: (يعنى أن كل حادثة أو ظاهرة فى الكون لها علة أحدثتها، ولكل علة معلول ينشأ عنها. حوادث هذا الكون تسير فى تسلسل علي. كل ظاهرة علة للظاهرة التى تليها، ومعلول للظاهرة التى سبقتها والعلة توجب معلولها، أى إن حدوث العلل ذاتها يوجب حدوث المعلولات والنتائج ذاتها وبهذا تكون الضرورة محيطة بالأشياء كلها، والأحداث تحدث فى أنماط منتظمة. يمكن صياغتها فى قوانين. وعلى أساس من هذه القوانين ومن العلل

الفعلية، يمكن وضع تنبؤات دقيقة. وشمولية العلية تجعل كل حدث يمكن التنبؤ به من حيث المبدأ. وما يحصر تنبؤاتنا هو فقط نقص معرفتنا بالعلل والقوانين). إذا كانت العلية هى عملية تسلسل من الماضى إلى الحاضر، ثم إلى المستقبل، فهى ترفض النظرية الغائية التى تذهب إلى أن الغاية المستقبلية هى التى تحتم الماضى، ولكن كل من المذهبين – الغائى والحتمى – يتوصلان إلى نفس النتيجة بتحديد الحدث ورفض احتمالية الأحداث.

تقع اللاحتمية Indeterminism، أو ما يسمى بحرية الإرادة Free Will فى الطرف الآخر من الحتمية / القدرية / الجبرية. عرف هنتر ميد اللاحتمية فى كتاب "الفلسفة أنواعها ومشكلاتها" من وجهة نظر الثقافة الغربية: (مهما يكن من خضوع الأشياء المادية، وربما الكائنات العضوية الحيوانية، لقوانين العلة والمعلول، فإن الإنسان يظل متحررا من هذه القوانين فى إرادته أو فى قدرته على اتخاذ القرارات. إن أجسامنا – شأنها شأن كل موضوعات عالم الزمان والمكان – تخضع بالضرورة لقوانين آلية كقانون الجاذبية والقصور الذاتى والمقاومة.....الخ. وفضلا عن ذلك فإن طبيعة وظائفنا الجسمية خاضعة لكل قوانين الفيزياء والكيمياء، ولكن القائل باللاحتمية يؤكد أن القوانين لا تسرى على طبيعة الإنسان الأخلاقية والإرادية ولا تفسرها. فهذه الطبيعة الأخلاقية والإرادية لا تخضع للحتمية، وهى حرة بالمعنى الصحيح، ذلك لأنه حتى لو كانت لدينا معرفة شاملة بماضى الشخص وشخصيته وجميع العوامل المتعلقة بموقفه الراهن، فسيظل من المستحيل التنبؤ بالاختيار الذى سيقوم به فى أى موقف معين.. يرى مذهب اللاحتمية أن الفرد لا يستطيع فقط أن يختار بلا سبب – أى أن يتخذ قرارات لا صلة لها بقرارته السابقة أو بأى عامل فى تجربته الماضية – بل إنه يستطيع أيضا أن يستهل اتجاهات سلوكية تمثل تجديدا أصيلا فى نمط حياته). وضع أصحاب مذهب حرية الإرادة بعض الحجج لتثبيت رأيهم ومنها: إذا كانت

طبيعة الأشياء حتمية والسلوك الإنسانى مقدر، فعندئذ تكون الأفكار غير ذات معنى، وتصبح القيم والمثل العليا عديمة الفائدة، والقوانين التى وضعها الإنسان لمحاسبة المخطئ هى مجرد حمق وهراء، وسوف يصبح غير منطقى أن نعد شخص مسئولا عن فعل معين ما دام هذا الفعل غير صادر عن إرادة حرة.

وماذا عن الحتمية اللينة Soft Determinism أو ما يسميها البعض الحتمية المعتدلة...؟ هذا المذهب يتواجد بين القدرية الصارمة، وحرية الإرادة غير المحكومة. يرى هذا المذهب أن القدرية على حق فى التأكيد على أن السلوك يرجع إلى المنبهات الخارجية، وبالتالى فإن له علة مباشرة، ولكنه من جهة أخرى يتفق مع اللاحتمية فى أن الذات الإنسانية تمثل كائنا خلاقا، وليس مركبًا من المنبهات والاستجابات، فالإنسان له طبيعة خاصة من خلالها تتحدد أفعاله وليس تبعا لقوى خارجية. بالتأكيد ينتج سلوك الإنسان – إلى حد كبير – من جيناته وشخصيته وثقافته، ولكن يملك الإنسان أيضا الحرية الأخلاقية، ويصبح لديه المسئولية التامة عن سلوكه وقراراته، لأنها نابعة عن ذاته الكاملة المتكاملة، خاصة بالنسبة للإنسان العاقل الواعى. وبذلك تنحصر حرية الإنسان المعنوية والأخلاقية فى الحتمية الذاتية، لهذا يتغير حكم القاضى فى نفس نوع القضية، وفقا للظروف والملابسات المختلفة التى تصاحب حدوث الجرم. يدعم أصحاب مذهب الحتمية المعتدلة بدراسات علم النفس فى أن الاختيار أو القرار يحدث دائما نتيجة لشروط معينة، فعندما تتوافر هذه الشروط يحدث الاختيار، وعندما تغيب لا يكون هناك اختيار، وعندما تختلف يختلف الاختيار، فإن كل القرارات إنما هى نتيجة لدوافع، والدافع الأقوى هو الذى له الغلبة وتأثيره القوى فى احتمال حدوث الحدث.

يرى هذا المذهب أيضا أنه كلما زادت المعلومات عن الشخص، ومعرفة خباياه، والتوصل إلى خريطته الجينية، وتجاربه السابقة، كلما أمكن التنبؤ بسلوكه إلى حد بعيد، ولذلك قامت العلوم الاجتماعية، وازدهر علم النفس الذى يحلل الشخصية ويتوقع السلوك المتوافق مع الشخصية. حجة أخرى للحتمية وهى أن

العلم الحديث يرتكز على مفهوم العلية والقوانين الآلية التى تحكم الطبيعة. أما بالنسبة لمشكلة المسئولية القانونية، فقد فندها هنـــتر ميد فى المرجع السابـق ذكره فى الفقرات التالية: (حجة اللاحتمية هى إذا كانت الإرادة محتومة فعندئذ لا يكون هناك مبرر للعقوبة القانونية، إذ إن المجرم الذى تتحكم فيه قوى خارجية لا سلطان له عليها، أو عوامل وراثية تحددت قبل ميلاده، لا يستطيع أن يفعل غير ما فعل، ومن ثم، فأية عدالة يمكن أن تكون للعقوبة تبعا للرأى الحتمى؟.... على أن أنصار مذهب الحتمية يشيرون إلى أن هذه الحجة اللاحتمية ترتكز على فهم عتيق لمعنى العقوبة القانونية، إذ هى تفترض أن الغرامة، والسجن، الخ لها مقصد انتقامى، أى إن المجتمع يلجأ إليها لكى يثأر من المجرم. على أن هذه الفكرة الهمجية لا مكان لها فى فلسفة العقوبة الحديثة المستنيرة، التى تجعل للعقوبات مقصدين: أولا حماية المجتمع عن طريق الحد من خطورة مرتكب الجرم، لا سيما إذا كان من معتادى الإجرام، وهذا يعنى عادة نوعا من الحبس. ثانيا إصلاح مرتكب الجرم عن طريق إعطائه مجموعة جديدة من الدوافع قد تكون مثلا عليا اجتماعية أعلى قيمة.. أى إعادة التكييف). بالإضافة إلى ما سبق، فإذا كان من المحتم أن يقوم المجرم بارتكاب الجرم، فإنه من المحتم أيضا وقوع العقاب عليه.

إذا كانت القوانين الفيزيائية تجرنا نحو الحتمية – عدا نظرية الكم Quantum Theory – فإن علم النفس يشدنا إلى نفس الطريق. نعود إلى نظرية الكم ثم نستكمل الحديث عن تدعيم علم النفس للحتمية. فى بداية القرن العشرين توصل العالم الفيزيائى الألمانى ماكس بلانك إلى أن الذرة Atom يمكن أن تقذف بإشعاع فى صورة كميات غير متصلة من الطاقة، أو ما يسمى بالكمات "جمع كلمة كم" Quanta، وتعتبر كمات الإشعاع أصغر صورة من صور الطاقة، وهى تتبع التوزيع الاحتمالى. لقد استبدل بلانك الفكر الكلاسيكى العلى / الحتمى لنيوتن فى الطاقة والحركة، إلى فكر احتمالى لا يتوافق مع العلية، ولكن هل كل أسرار الذرة معروفة للفكر الإنسانى، وهل إذا تحقق للفكر العلمى جميع أسرار الذرة،

فإنه سيمكن إدخال كمية ودورة الكمات فى قوانين آلية بدلا من التوزيع الاحتمالى.

وفى علم النفس، يذهب التحليل النفسى إلى أن كل نمط من أنماط السلوك له أسبابه، ابتداء من ذلة اللسان، الأحلام والهلاوس والنسيان والاختيار والرغبات والكفاح، وأن دور التحليل النفسى هو إماطة الحجاب، بالبحث عن مصادر التفكير والمشاعر والأفعال وذلك من خلال الكشف عن الدوافع المختبئة والصراعات. بفضل علم النفس أصبح الإنسان يدرك مدى التأثير الخفى الذى يمكن أن تمارسه الرغبة فى التبرير على تفكيرنا وسلوكنا. والتبرير ما هو إلا بحث عن أسباب جيدة لأفعال سيئة نخجل عن إعلانها. يحاول الإنسان دائما – عن طريق الذهن – الاهتداء إلى أسباب دفاعية لسلوكه المنحرف والقبيح. إن الإنسان يدعى الحرية، وينكر ذاته الأنانية، وينقب عن التبرير اللازم لتجميل صورته الظاهرية.

من أجل تضييق الهوة بين الحتمية وحرية الإرادة، حاول الفيلسوف الألمانى كانط التوفيق بينهما باقتراح فكر جديد وهو أن الإنسان مرتبط بـ، ويتعرض إلى كل من:

- نوع ما من الظواهر الطبيعية التى لها صفة الحتمية.
- نوع ما من الأخلاقيات يكون للإنسان فيها خالص الحرية فى الاختيار والفعل.

يذهب بعض آخر من المفكرين إلى أن هذا الجدل فى الوصول إلى أحقية الحتمية أو الإرادة الحرة، أو معرفة أيهما على صواب أو على خطأ، هو خلاف لا معنى له وغير قابل للحل أو التوفيق. إن المنظومة البشرية قائمة على الاختلاف والتباين فى كل شىء مما يحتم وجود آراء مختلفة، ونظريات متعددة، ومذاهب شتى حتى تتوالد الإثارة، فيقضى الإنسان على بعض الملل الذى يعيش فيه.